مجلة مقامات – 20جويلية (2022م)
EISSN: 2253-0363 / ISSN: 2543-3857
المجلد 06/ العـدد: 01/ ص: 263- 276

شعرية السيرذاتي عند طه حسين (كتاب الأيام) أنموذجا

The autobiographical poetry of Taha Hussein the book of days as a model

د.بلال عزوز
D.bilal azzouz
جامعة غرداية (الجزائر)
azzouz.bilal@univ-ghardaia.dz

د.عبد الرحمان عبد الحي
D. abderrahmane abdelhai
جامعة غرداية (الجزائر)
ab.rrahmane@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2022-04-01 تاريخ القبول: 2022-04-26

ملخص:

في هذه الورقة سنبحث في شعرية أسلوب "طه حسين" وسنبرز قيمتها ومدى فاعليتها في التمثل لشخص المبدع وبراعته. فقد تنوعت الظواهر الأسلوبية في كتاب الأيام من خلال التنويع في الأصوات والصور الإدراكية وعمليات التخييل العمياء للكاتب، وكذلك طريقة السرد المكثفة وتمثلات الزمن.

هذه كلها بنيات تحكمت في ميلاد سيرة ذاتية شاعرية، تجعل من متلقيها ينقاد لمتابعة سيرورة الأحداث دون ملل،وحين العودة إلى لغة "طه حسين" فإننا نجدها لغة ثرية ومتنوعة يخضعها صاحبها لتركيب متفرد يبث من خلاله عالمه الأعمى وصراعاته مع العمى والمجتمع.

كلمات مفتاحية: طه حسين، سيرة ذاتية، الشعرية، اللغة، الأسلوب.

Abstract:

In this paper we will look at Taha Hussein's poetry and highlight its value and effectiveness in representing the creative person and his prowess. Stylistic phenomena in the Book of Days varied through diversification of cognitive sounds and images and the blind imaginations of the writer, as well as the intense narrative method and representations of time.

These are all structures governed by the birth of a poetic biography, which makes the recipients criticize to follow the course of events without boredom, and when returning to the language of "Taha Hussein", we find it a rich and diverse language subjected by its owner to a unique installation through which he broadcasts his blind world and his conflicts with blindness and society.

Keywords: Taha Hussein; Biography; poetic; language; style.

1. مقدمة:

يعد "كتاب الأيام لطه حسين" مدونة توثيقية ومسارا تاريخيا لحياة هذا المبدع، صاغه بطريقة جمالية وأدبية يبين فيه تفاصيل حياته، وكذلك علاقته بأسرته ومجتمعه وتلقيه للعلم في الأزهر، وكذلك اتصاله بالحضارة الغربية ومناهجها.

برع الكاتب في صياغة وحياكة هذا المتن النصي بأسلوب متفرد جمالي يستثير المتلقي فيعيش معه تفاصيل أيامه، ولقد استطاع "طه حسين" نقل مشاعره وأحاسيسه لنا بكل طلاوة وحلاوة من خلال الخصائص الأسلوبية التي يمكن استخراجها من المدونة، على غرار ظاهرة التكرار والإطناب وغيرها من الظواهر.

كل هذه الظواهر جاءت في قالب نثري ينثر الكاتب فيه آلامه ولحظات تأزمه نفسيا وكذلك لحظات استعادة نفسه، محاولا تقاسم تلك اللحظات مع لغته أولا ثم مع مجتمعه أو من قبل متقبليه أو متلقيه، والسؤال المطروح هو كيف تجلت شعرية اللغة عند طه حسين؟ وماهي ظواهر شعرية اللغة في كتاب الأيام؟، وللإجابة عن بحثنا في كتاب الأيام عن مواطن شعرية اللغة، وكشفنا عن جمالية اللغة من خلال التكرار والإطناب وإستعمالاته لحروف العطف وضمير الغائب، وفي مايلي تفصيل للدراسة.

2. التكرار: أبرز السمات الأسلوبية المتجلية في الأيام، ظاهرة التكرار التي تعد من أهم اللبنات في تشكل النص الإبداعي، وكذلك تحقيق شعريته، كما تشكل بنية من البنيات الأساس في تشكل النص، وفي ما يلي نتعرض للتكرار من جانب نظري نستطيع من خلاله الولوج إلى تمثلاته في تعريف "الجرجاني" للتكرار بقوله: "هو عبارة عن الإتيان بشيء مرة بعد مرة"[1]، أي بمعنى الإعادة مرة تلو الأخرى لغرض معين أما ابن جني في "الخصائص" فيورد في قضية التكرار ما يلي: "علم أن العرب إذا أرادت المعنى مكنته واحتاطت له فمن ذلك التوكيد وهو على ضربين أحدهما تكرار الأول بلفظه ... والثاني تكرير الأول بمعناه"[2]، وهذا يقودنا إلى القول بأهمية التكرار عند العرب في تأكيد المعنى وإيصال الرسالة المتوسلة من الكلام وأيضا مدى وقوع هذا التكرار من نفس المتلقي. "والتكرير دلالة اللفظ على المعنى مرددا"[3] ويورد "ابن الأثير "حديثه عن التكرار بقوله "وأعلم أن المفيد من التكرير يأتي في الكلام تأكيدا له وتنشيدا من أمره، إنما يفعل ذلك للدلالة على العناية بالشيء الذي كررت فيه كلامك، إما مبالغة في مدحه أو ذمه، أو غير ذلك، ولا يأتي إلا في أحد طرفي الشيء المقصود بالذكر، والوسط عار

منه ... وغير المفيد منه لا يأتي في الكلام إلا عيا وخطلا من غير حاجة اليه"[4]، وبهذا يكون التكرار أداة لتأكيد المعنى المقصود، أو العناية بقضية معينة.

ومن أمثلة ذلك في كتاب(الأيام) تكرار الكاتب لعبارات بعينها أو كلمات أو جمل كقوله: "هو يذكر هذا السياج كأنه رآه أمس، يذكر أن قصب هذا السياج كان أطول من قامته، فكان من العسير عليه أن يتخطاه إلى ما وراءه ويذكر أن قصب هذا السياج كان مقتربا كأنما

كان متلاصقا فلم يكن يستطيع أن ينسل في ثناياه، ويذكر أن قصب هذا السياج كان يمتد من شماله إلى حيث لا يعلم له نهاية، وكان يمتد عن يمينه إلى أخر الدنيا من هذه الناحية وكان آخر الدنيا من هذه الناحية قريبا"[5]، فيكرر الكاتب عبارة "ويذكر أن قصب هذا السياج" في المقطع، فتعد حلقة وصل بين تدافع الذكريات على قلم الكاتب، وعملت هذه العبارة على اتساق الصورة البصرية التي يريد الكاتب إيصالها للمتلقي.

وتوحي لنا أيضا أن الكاتب لا يكاد يتنصل من ذكريات هذا السجن الذي يرده عن العالم إلى ما وراء السياج، وللعبارة موقع حسن من النفس حيث لا يشعر القارئ بثقل في اللغة أو ركاكة ورتابة تجعله يمل متابعة الأحداث والتفاصيل، وفي إمكاننا هنا استدعاء مفهوم الحرية والسجين والسجن حيث يعتبر طه حسين سجين العاهة؛ أي العمى والسجان هي أسرته أما السجن فهو السياج، وتهمة طه حسين أنه خلق أعمى أي العيش تحت رعاية أسرته وهو ما سبب له التأزم النفسي والعقد الاجتماعية والانشطار الذاتي.

وفي موضع آخر يكرر الكاتب عبارات بعينها كقوله: "ولم يكن يقدر أن هذا العرض ضئيل بحيث يستطيع الشاب النشيط أن يثب من إحدى الحافتين فيبلغ الأخرى، ولم يكن يقدر أن حياة الناس والحيوان والنبات تتصل من وراء هذه القناة، على نحو ما هي من دونها، ولم يكن يقدر أن الرجل يستطيع أن يعبر هذه القناة ممتلئة دون أن يبلغ الماء إبطيه"[6]، وفي المقطع السابق يكرر الكاتب عبارة (لم يكن يقدر)، فتعمل هذه العبارة على عدم ترك فجوات أو رتابة في تسلسل التصورات الذهنية التي كان يبنيها الصبي الكفيف، وهي تحافظ على الجرس الموسيقي للمقطع وتستميل الأذن وتحاول الولوج إلى عالم اللاوعي من أجل إشراك المتلقي في العالم الأعمى الذي نسجه الكاتب.

كذلك ترديده لعبارة (من ذلك الوقت) في قوله: "من ذلك الوقت تقيدت حركاته بشيء من الرزانة والاشفاق والحياء لا حد له، ومن ذلك الوقت عرف لنفسه إرادة قوية، ومن ذلك الوقت حرم على

نفسه ألوانا من الطعام لم تبح له إلا بعد أن جاوز الخامسة والعشرين "[7] والملاحظ من هذا المقطع تكرار عبارة (من ذلك الوقت) التي كانت غصة في قلب الصبي لما ولدته تلك الحادثة في طبعه ونفسه، وذلك من خلال إحساسه بشفقة إخوانه،كما أن العبارة توحي بتوقف الزمن للحظة هي لحظة ربما يلوم فيها الفتى نفسه لأنه خلق أعمى أو يلوم أسرته التي أهملته ولم تأخذه للمستشفى، وهنا يزداد التوتر والإحساس بالوحدة والتأزم النفسي.

كما أن هذه العبارة في لغتها تعمل أيضا على تسلسل الأحداث وإبانة الصورة الملموسة لدى المتلقي التي كانت نقطة انطلاق جديدة بمنهاج جديد يسير عليه في حياته، بعد التصريح من قبل أهله على أنه عاجز ويثير الشفقة والضحك "فإذا أنت تقرأ الأيام فيشدك إليه الحرف واللفظ والبنية والتركيب كأن لم تكتب الذات عن نفسها،كأنها لم تصدر عن حقيقة واقعة فإذ أنت فيه بين حس وخيال بل بين ماض تولى وصائر لم يزل"[8]؛أي أن السيرة الذاتية لطه حسين هي سحر يذهب بكل قارئ ليعيش مفاهيم الوجود والذات والحرية والعذاب كذلك حسن تصويره لأيامه التي كانت منفذا إلى عالم البصيرة.

"وتتبع مختلف أطوار "طه حسين" من خلال الأيام ترى أن ضابطها الأول إنما هو التحول السريع والتقلب المتجدد،فإذا رمت لذلك تفسيرا أيقنت أنه يثوي في الخاصية الأولى التي تطالعك بها الصفحات المفتاح من سيرته الذاتية:هو الفصول"[9].

إن ظاهرة الإعادة في أيام "طه حسين" منتشرة وفي جميع مؤلفاته، "فيوجد في أسلوبه إعادة للصوت وإعادة للكلمة وإعادة للجملة وإعادة للمعنى، وقد وفق "طه حسين" في كل هذه الإعادة مقويا في موسيقى اللغة، وزاد من جمال الجرس اللفظي"[10]، وبهذا يكون الكاتب قد خلق نوعا من الإتزان الموسيقي ليجذب القارئ ويستميل إحساسه.

ومن الممكن الظن بأن الكاتب قد لجأ إلى هذه الألوان من الإعادة حتى يتمكن من الاحتفاظ في ذهنه "بسلسلة الأفكار أو الأحداث التي يمليها عليه مساعده أو يلقيها على جماهير المستمعين لمحاضراته وخطبه وأحاديثه، ولهذا نرى في أغلب الأحيان أنه يأخذ في مثل تلك الإعادة في أول الجمل التي يتابع بعضها البعض"[11]؛أي أن شيئا من النسيان يتربص بالكاتب فيضطر إلى الإعادة لترسخ في ذاكرته الأحداث والتفاصيل والمحاضرات ليستطيع استذكارها مستقبلا .

إن ظاهرة الإعادة تمثل جزءا من موسيقى "طه حسين" اللغوية فهو "يجعل من إعادة الصوت والجملة وحدة موسيقية تعاد بين الحين والآخر ويتخلل تلك الوحدة الموسيقية تنويع وتلوين يقوي من جمال اللغة ويحسم المعنى ويزيد من تصوير البيئة والحالة النفسية"[12].

ومن أمثلة هذه الوحدة الموسيقية قول صاحبنا: "وكان الفتى يرى من حوله عشرات ومئات يشقون كما يشقى ويلقون مثلما يلقى وتقصر أي أيديهم عن أقصر ما كانوا يحبون، قد اطمأنوا إلى ذلك والفته نفوسهم، واستيقنوا أن الثراء والسعة وخفض العيش أشياء تعوق عن طلب العلم وأن الفقر شرط للجد والكد والاجتهاد والتحصيل"[13].

وفي موضع آخر نلمس الجرس الموسيقي الرنان في قوله: "حياة مطردة متشابهة لا يجد فيها جديد منذ يبدأ العام الدراسي إلى أن ينقضي: درس التوحيد بعد أن تصلي الفجر، ودرس الفقه بعد أن تشرق الشمس، ودرس في النحو بعد أن يرتفع الضحى، وبعد أن يصيب الفتى شيء من طعام غليظ، ودرس في النحو أي بعد أن تصلي الظهر، ثم فراغ فارغ كثيف بعد ذلك يصيب فيه الفتى شيئا من طعام غليظ مرة أخرى"[14].

ونماذج الإعادة كثيرة في (الأيام) تطفو على المتن النصي لتشكل وحدة موسيقية متجانسة دون إحداث رتابة في الأسلوب أو تعقيد لغوي وركاكة وتشكل إحدى سمات تشكل شخصية الكاتب وإبداعاته.

ومنه يعد طه حسين متمرسا على اللغة العربية وأساليبها وعلمه بأسرارها البلاغية التي مكنته من حسن الصياغة والتفنن في إيراد المعاني في صيغ لغوية ملونة ومتنوعة، كذلك الجرس الموسيقى الذي يطبع كتابه الأيام أنما هو دليل على التمرس والإحاطة بمختلف العلوم العربية، وبهذا كان أسلوبه سهل موسيقي يزخر بالكثير من الظواهر اللغوية التي تصنع فرادته.

3. الإطناب: يعد الإطناب من الظواهر البلاغية التي يستعين بها الكاتب لإدراج أو التركيز على رسالة عينة لأغراض مختلفة وفيما يلي نعرض للإطناب مفهومه قصد معالجته في الأيام

يعرف الإطناب على أنه: "زيادة اللفظ على المعنى لفائدة"[15]؛أي ورود معنى واحد باللفظ الكثير لغرض معين، ويكون الإطناب بأمور عدة منها "ذكر الخاص بعد العام للتنبيه على فضل الخاص، وذكر العام بعد الخاص لإفادة العموم مع العناية بشأن الخاص والإيضاح بعد الابهام لتقرير المعنى في ذهن

السامع والتكرار لداع كتمكين المعنى من النفس وكالتحسر وكطول الفصل"[16]، وبهذا يكون للإطناب أغراض عند الكاتب بحسب هدفه من الخطاب الموجه للقراء، فتارة يكون لتمكين المعنى في نفسية القارئ، وتارة لذكر الخاص بعد العام.

كما نورد أغراض الإطناب من خلال الأغراض التي يستعملها الكاتب "ويرد الإطناب للإيضاح من بعد إبهام لقصد ضاح يمثل التذاذ كامل للعلم به أو مكنة في النفس بعد طلبه"[17]، ويعنى هذا أن الإطناب يكون بأمور كثيرة منها الإيضاح بعد الإبهام أي إذا أردت أن تبهم ثم توضح فإنك أطنبت، وفائدته إما تمكين لذة العلم به لأن الشيء إذا عرف من وجه ما تشوقت النفس للعلم به من باقي وجوهه وتأملت، فإذا حصل العلم على بقية الوجوه كانت لذته أشد من علمه من جميع وجوهه دفعة واحدة[18]؛أي أن غرض الإطناب هو تمكين المعنى في نفس القارئ بعد كشف المجهول و إحداث لذة الكشف عن المجهول.

ومنه يأخذ الإطناب صورا متعددة لقصد معين يعمل الكاتب على إبرازه في غرض معين.

ومن أمثلة ذلك في كتاب الأيام نجد مايلي: "انقضى هذا اليوم، وكان يوم الجمعة، وإذا الصبي يرى نفسه في الأزهر للصلاة، وإذا هو يسمع الخطيب شيخا ضخم الصوت عالية، فخم الراءات والقافات، لا فرق بينه وبين خطيب المدينة، إلا في هذه. فأما الخطبة فهي ما كان تعود أن يسمع في المدينة. وأما الحيث فهو هو، وأما النعت فهو هو، وأما الصلاة فهي هي، ليست أطول من صلاة المدينة ولا أقصر"[19]، فنلاحظ أن الكاتب يطنب في وصف الصلاة في الأزهر ويقارن بينها وبين الصلاة في المدينة، فيزيد اللفظ عن المعنى الذي كان يمكنه أن يكتفي بقول لا فرق بين صلاة الأزهر وصلاة المدينة، لكن الكاتب يكثف لنا الوصف بزيادة الألفاظ نظرا لما كان يعتقد بأن المكان سيحمل الجديد وهو التعريف بالخاص على طريق العام.

وفي موضع أخر يطنب الكاتب "ولقد لزم الفتى غرفته تلك منذ دخل السفينة إلى أن خرج منها، ولم يذهب إلى غرفة المائدة، وكيف يذهب إليها وهو لا يحسن الحركة في هذه السفينة التي لا تستقر، ولا يعرف الجلوس إلى موائد الطعام، ولا يحسن استعمال تلك الأدوات التي يستعملها الناس حين يطعمون، ولا يستطيع أن يأكل أمام المسافرين من الأوروبيين بيديه كلتيهما أو إحداهما، كما كان يصنع في مصر فليس له بد إذن من أن يصيب طعامه في غرفته"[20]، وفي هذا المقطع أيضا يطنب الكاتب في وصف رحلته في السفينة ويزيد الألفاظ عن المعنى محاولا تمكين الحادثة من نفس المتلقي لنقل أحاسيسه وهو يسافر عبر البحر.

ويتحدث الكاتب عن السفينة التي اختيرت ليسافر بها إلى الغرب ويرى فيها الصفات الرثة التي لا تؤهلها للاستخدام، ويعتبره لون من الاقتصاد فيجمع لنا صفات السفينة في جمل كثيرة يحاول من خلالها عرض الصورة الحسية للسفينة للمتلقي، لكي يشارك معه رجلاه في السفينة الرديئة، فالكاتب هنا يجيد الوصف ويذهب بمخيالنا إلى هذه السفينة التي تؤثر على الوصول بسرعة وترقص مع البحر وتعانق أمواجه .

كذلك في المقطع التالي نجد الإطناب "كان يحدثه عن الشمس حين تملأ الأرض نورا وعن الليل حين يملأ الأرض ظلمة، وعن مصابيح السماء حين ترسل سهامها المضيئة إلى الأرض وعن الجبال حين تتخذ من الجليد تبجانها الناصعة، وعن الشجر حين ينشر من حوله الظل والروح والجمال، وعن غير ذلك من مظاهر الجمال والروعة ومن مظاهر القبح والبشاعة فيمن كان يحيط به الناس وفيما يحيط به الأشياء"[21]، وهنا أيضا يصف لنا الكاتب جمال الطبيعة وصفا مطنبا غرضة التأثير في المتلقي و التغلغل في نفسه من خلال إيراد الجمال الطبيعي وتفصيله في شكل تسلسلي، وعلى شكل جمل متراصة يحاول من خلالها شد المخاطب للنص، ولقد تحكم الكاتب في اللغة وزاد معانيه اللغة الشاعرية التي تشكل فضاء شعوري يزحف نحو الأذن والوجدان ليترك بصمته على كل قارئ لنص الأيام.

لغة طه حسين وأسلوبه يتدرج في الأيام «ليس من الممكن الزعم بأن لغة وأسلوب طه حسين في الأيام في مستوى واحد وإنما يجب الاعتراف بأن لغة طه حسين في الجزء الأول تختلف إلى حد كبير عن تلك اللغة التي نراها في الجزء الثاني، كما أن أسلوب الكاتب في الجزء الأول يتميز بأمور من الصعب العثور عليها في الجزء الثاني"[22]، إن الكاتب تدرج في تمكنه من اللغة وأساليبها فطور من أسلوبه ولغته لتكون أكثر فاعلية وتأثيرا.

إن ما نلاحظه من خلال الإطناب في أسلوب ولغة طه حسين هو القدرة في المواظبة على الجرس الموسيقي هو يكتب بنسق موسيقى متواصل لا يحس القارئ تقطعه وهذه قدرة يمتاز بها طه حسين عن بقية الكتاب نظرا لما يملكه من قدرة في التحكم باللغة وحين تتبع الأيام تجد جوا موسيقيا عاما ينثره الكاتب على صفحات النفس لينقل معاناته وعلاقاته وكذلك محاولة وجودية أو استكشافية في عالم الإنسان.

إن هذه البنيات عملت على إخراج النص في صورته الجذابة، وكتاب الأيام يحمل اللفظ الشفاف المخيل الذي هو كفيل بأن يصهر الذات المتحدث عنها مع المحيط الواقعة في سياجه...ولقد كان ل"طه

حسين" أسلوب في القص والتصوير صاغه على نمط من الإنشاء تبددت فيه حواجز الدلالة فغدا دالا ومدلولا [23].

ومنه يمكننا القول أن الإطناب يشكل إحدى السمات التي تتميز بها لغة وأسلوب طه حسين في الأيام حيث تشكل لبنة اساسية في بناء النص السير الذاتي يعتمدها الكاتب لرصف الصور الذهنية والحسية لتمكينها من المتلقي كذلك لإبراز مواقف أثرت في نفسه وخلق جو موسيقى عام على مدى الكتابة، إن الإطناب يعمل عمل الموزع الآلي للأنغام الموسيقية التي تنتشر على النص فتستميل القارئ وتعطي للكتاب سمة الجمالية وبهذا يكون الكاتب قد برع في رصف اللغة بطريقة لا يملها القارئ وجعل فاعل القراءة رنانا يأسر المتلقي ويرحل معه في رحلة الوجود والبحث عن الذات وكذلك تشييد عالمه الخاص، فالقارئ للأيام يحس أنه شاهد الأحداث عينيا ويشعر بألم الصبي كأنه أخوه وهذا راجع إلى براعة التسجيل والتصوير الفني والقصصي.

4. ضمير الغائب: لعل المتتبع للمتن النصي الأيام يلحظ ظاهرة البناء للمجهول التي تتجلى بوضوح في لغة طه حسين "فقد أثر طه حسين صيغ المبني للمجهول على غيرها من الصيغ التي يمكن أن تقوم مقامها من أفعال المطاوعة وغيرها"[24]، ولقد تعددت تسمية الفعل المبني للمجهول عند أهل اللغة العربية فتتضح البلاغة العربية في وجه من وجوه الاختصار في استعمال الفعل المبني للمجهول بصيغه المقصودة.

كما "أن تغيير صيغة المبني للمعلوم إلى صيغة المبني للمجهول فيه دلالة على تمكن المفعول عند العرب وتقدم حالة من أنفسهم، إذ أفردوه بأن صاغوا الفعل له صياغة مخالفة لصيغته وهو – الفاعل- وهذا ضرب من تدرج اللغة"[25]، فقد كانت عناية العرب بالفعل المبني للمجهول سبب وقوع المفعول بأنفسهم موقع كبيرا.

إن في اختيار طه حسين البناء للمجهول ما يؤكد على ذاتية الكاتب في اختيار أساليبه ويؤكد ما يراه عبد القاهر الجرجاني من أن اختيار نوع الوحدات ومواقعها لموجب أما أن يكون مع عدم الموجب لنسق فمحال.

إن استخدام "طه حسين" لضمير الغائب كان خادما لأغراض المؤلف بصورة جيدة، فلو التزم الكاتب بأسلوب المتكلم لكان لزاما عليه أن يعرض لصوره ومواقفه من زاوية الصبي وحده، وأن يلون هذه الصور والمواقف باللون الذي يتلاءم مع التطور النفسي والعقلي للطفل وهو في هذه الحالة، لا يستطيع الكاتب أن يقف من هذه المواقف موقف المعلق والمفسر، ولجوء الكاتب إلى ضمير الغائب

يعفيه من كل القيود ويعطيه مزيدا من الحرية فيستطيع تصوير الموقف من خلال إحساس الصبي ويعلق عليه من وجهة نظره[26]؛أي أن إيثار الكاتب ضمير الغائب كان لغرض التملص من كل القيود وممارسة حرية الفكر.

لقد كان ضمير الغائب في أسلوب طه حسين من العوامل التي أتاحت له العجب النفسي وليس هو من العوامل التي ساعدته على التبرئة من مظنة العجب والدعوى والتمجيد بالنفس وغير ذلك مما يوحي إليها ضمير المتكلم، ولقد كان ضمير الغائب من عوامل عجبه بذاته حين فصب بلجوئه إلى استعماله بين ذاته وبين مواقف حياته وأحداثها وقد كانت تخفيه وراء ضمير الغائب من أجل صب غضبه في بعض الشخصيات[27].

ومن أمثلة الضمير الغائب في الأيام ما يلي نجد: "على أن صبينا لم يلبث أن أضاف إلى هذه الألوان من العلم لونا جديدا، وهو علم السحر والطلاسم"[28]، وقوله أيضا "وقد قرئ لصاحبنا من كل هذه كله فحفظ منه الشيء الكثير ولكنه عني بشيئين عناية خاصة عني بالسحر وعني بالتصوف"[29]، نلاحظ في المقطعين السابقين استعمال الكاتب كلمة صبينا التي تعطي الكاتب مسافة حرية للحديث والتصريح لما يختلج نفسه، كما أن الكلمة جاءت بصيغة الضمير الغائب ليتحرك الكاتب بحرية بين الدلالات ويعطيها بعدا موضوعيا في سرد تفاصيل حياته.

"كان الصبي إذن يستقبل حانوت الحاج فيروز إذا خرج من ذلك الممر المسقوف وربما خطا مع صاحبه خطوات فحيا الحاج فيروز والتمس عنده رسالة فوجدها أو لم يجدها، فانصرف مبتسما أو عابسا"[30]، وقوله في موضع أخر "فأما نوم الصبي فقد قطعه هذان الصوتان، وأما أخوه فلم يسمعهما هذه الليلة كما لم يسمعهما من قبل، ولبث الصبي في فراشه ضيقا بهذا السكون عاجزا عن الحركة، مشفقا أن يوقظ أخاه"[31]

يستعمل الكاتب في هذين المقطعين السابقين كلمة الصبي ليحول بين ذاته وتصورها للعالم الخارجي فينقل لنا موقف الصبي بكل ذاتية ويعلق عليه بلغة موضوعية تعمل على خلق نوع من الخلق اللغوي الجمالي الذي يسرد بطريقة ذكية لا تكشف الموقف الصريح للكاتب إلا من خلال التتبع والربط بين الدلالات كما أن حضور الكاتب هنا هو حضور نصي يعمل على الشرح والتفسير.

يحول ضمير الغائب دون الرؤية الحية للعالم الذي يعيش الراوي فيه، ويعوق المشاركة المباشرة فيه، إنما يرتب تلك العلاقة عبر وسيط، ولا تبدو الوساطة في السرد الذاتي محل تقدير كبير لما تسببه

من إبعاد بين الذات وموضوعها، ولقد أكثر طه حسين من استخدام ضمير الغائب فيما أملى وتحدث فضمير الغائب مناسب له، ومفصل لديه وصالح للاستعانة به من طرف مؤلف موسوعي تبحر في شعاب الآداب.

وعلى الرغم من بعض المواقف العاطفية في الكتاب، فإن طبيعة الانسياب فيه وسرده بضمير الغائب، قد حقق شيئا من التجرد في الحكم، وباستعمال ضمير الغائب بريء من مظنة العجب والدعوى والتمجيد بالنفس وغير ذلك من الصفات التي يوحي بها ضمير الغائب[32]، إن استعمال الكاتب لضمير الغائب كان مسافة تحرر له لكي يبرز أراءه التهكمية والساخرة من بعض قامات العلم وبعض الموروث الثقافي العربي.

إن استخدام ضمير الغائب في سيرته الذاتية جنبه التصريح والكشف لرؤية أشياء يتعذر عليه ملاحظتها، ومقاربة موضوعات وجدانية يصعب عليه استنباطها، ولهذا يستغرق كثيرا في وصف كل ما تسمعه أذنه أذا كان يرى العالم بعين الآخر ويتواصل مع الآخرين بلسان غير لسانه، وهذا دليل على أن "طه حسين" كان يتوارى وراء ضمير الغائب لأنه كان يعجز عن مقاربة الواقعات لكونه أعمى وهو لا يثق بما ينقل بلسان الآخر لذا كان يضع مسافة شك بين لما يسمعه وما يستنبطه من المنقول.

"فمن أهم آثار ظرفه البصري في سيرته الذاتية، ما يتعلق بتصحيح مفهوم اللغة تصحيحا يخلصها من ذلك التصور الخاطئ الذي يراها صورا ورموزا تعسفية تقرأ بالعين فحسب نتيجة لاعتماده حاسة السمع، وهو الأمر الذي أدى إلى لغة في سيرته الذاتية، فصيحة موسيقية، واقعية التصوير، لا يجد القارئ فيها يقرأ على ألسنة النماذج البشرية غضاضة وتكلف»[33]، ومما تقدم في شأن – الضمير الغائب- نستنتج، أن طه حسين آثر استعمال الضمير الغائب لمقاصد بعينها ويريد من خلاله خلق فضاء واسع يروج فيه لأفكاره دون رقيب، إنها محاولة لخلق عالم ذاتي للكاتب يصنع فيه مفاهيم الكينونة بذاته ومن استنباطه وتجاربه، ومنه استعمل طه حسين ضمير الغائب لمحاولة خلخلة بعض التصورات المجتمعية وخاصة تصورهم للأعمى.

وهكذا كان الضمير الغائب كيان نصي يرادف الكيان العيني الذي ينبذه الكاتب الوجودي كما كانت له الحرية المطلقة في السخرية والتهكم والنقد لما يروج من خطابات في المجتمع العربي.

5. حروف العطف: كذلك القارئ للأيام يلفت نظرة استعمال طه حسين، للروابط النصية بطريقة لافتة للإنتباه، ولتقريب الفهم للقارئ الكريم نقول: "أما إفادة التفصيل في المسند إليه فيكون بالواو كقولك جاء زيد وعمرو وخالد، والاختصار في هذا العطف يغني عن تكرير الفعل: جاء زيد جاء عمرو

جاء خالد وللتفصيل في المسند اليه مقامه، وللاختصار في ذلك مقامه أيضا"[34]؛أي أن الواو يعمل على الاختصار وعدم تكرار الأفعال في التراكيب اللغوية، وهذا ما نلاحظه في (الأيام) وفي ما يلي نماذج لتوظيف حرف العطف الواو في المؤلف: "كانت حياة الطفل في باريس حلوة مرة ويسرة عسيرة، لم يعرف فيها سعة ولا دعة، ولكنه ذاق فيها من نعمة النفس وراحة القلب ورضا الضمير ما لم يعرفه من قبل وما لم ينسه من قبل"[35]، وفي هذا المقطع نلاحظ استعمال الكاتب حرف العطف الواو بطريقة لافتة للنظر وهذا الواو يعمل على الربط الدلالي واللغوي بحيث لا يترك فجوات دلالية بين الصور الذهنية التي يعرضها الكاتب.

كذلك قوله: "وهو لم يعد إلى مصر إلا بعد أن وضعت الحرب أوزارها، وامتاز المنتصر من المهزوم، وظهرت أثار الانتصار عند الغالبين، وأثار الهزيمة عند المغلوبين، وثلث عروش كان الناس يقدرون لها الخلود، وذلت شعوب كان الناس يقدرون لها سلطانا لا يزول»[36].

6. خاتمة:

وختام هذه الرحلة البحثية في موضوع شعرية اللغة في أدب السيرة الذاتية كلل بنتائج نوردها فما يلي:

يعد مصطلح الشعرية مبحثا في الدراسات الأدبية له جذور تاريخية بداية من كتاب فن الشعر الذي يعتبر المهاد الأول لتبلور المفهوم في الدراسات الغربية ومجهودات "حازم القرطاجني" وغيره من النقاد العرب.

يشكل نقل المصطلح أي الشعرية إلى التربة العربية أزمة جعلت الأرضية المفاهمية غير مستقرة حيث ورد المصطلح بترجمات مختلفة كنظرية الشعر والإنشائية والبويطقا وغيرها.

يمكن الاتفاق على حد مفهومي للشعرية باعتبارها نظرية تحكم الخطاب الأدبي وتروم استنطاقه لأجل تقعيد خصائص تحكم بنياته اللغوية وتجعله عملا جماليا أدبيا.

الجنس الأدبي السيرة الذاتية يعتبر وعاء لغوي نصي يسرد فيه الناص تفاصيل حياة المختلفة وكذلك الحقائق بموضوعية لا يلبسها الزيف والمغالطة.

للسيرة الذاتية أنواع مختلفة يركز كل نوع منها على جانب من حياة المؤلف قد يكون فكري أو اعترافي ومن هذه الأنواع الاعترافات واليوميات وغيرها.

السيرة الذاتية جنس أدبي له ممارسات في القديم عند العرب والغرب تعبر هذه الممارسات السير ذاتية أولى لبنات تشكل الجنس ورواجه.

السيرة الذاتية لها خصائص تمتاز بها عن غيرها من الأجناس الأدبية لعل أهمها الموضوعية في نقل التفاصيل اليومية والتجارب الذاتية بصدق دون مغالطة وحجب للحقائق.

اللغة في السيرة الذاتية تكون تقريرية واصفة متخيلة في بعض جوانبها، تعمل على خلق فضاء حيوي يتفاعل معه القارئ.

الأيام سيرة ذاتية للكاتب "طه حسين" تطبعها المصداقية يحاول الكاتب فيها عرض الصراع مع العمى وخلق عالم أعمى يعيد فيه ترتيب المفاهيم الوجودية.

تحمل هذه السيرة معاناة الكاتب في التأقلم مع المجتمع ووعيه بالسياقات التي تحيط به.

يشكل التكرار لبنة في تشكل سيرة الأيام لما يعمل على خلق سلسة من التصورات الذهنية التي يحاول الكاتب من خلالها بث مشاعر المعاناة وإشراك القارئ في الأحداث والوقائع اليومية.

يطنب "طه حسين" في الأيام لأغراض قصدية بعينها ليحاول التماس مكانة في نفسية المتلقي، فيسرد لنا الأحداث بطريقة واصفة شاعرية في بعض الأحيان.

يتيح ضمير الغائب الذي يستخدمه طه حسين مسافة حرية ليتهكم على بعض المقدسات ويتجاوز من خلاله بعض العوائق التي تحول دون حرية التعبير والاستهجان السياقي لبلده وهويته وقوميته.

يستغل "طه حسين" حروف العطف كثيرا لأغراض بلاغية منها الاختصار لتفادي الملل في القراءة ودفع سيرورة الفعل القرائي بكل فاعلية.

الهوامش:

[1]الجرجاني: معجم التعريفات، تح ودر: محمد الصديق المنشاوي، (د، ط)، دار الفضيلة، القاهرة، مصر، (د، ت)،ص 59.

[2]ابن جني: الخصائص، تح: محمد علي النجار، (د، ط)، دار الكتب المصرية، ج3، (د، ت)، ص- ص 101-104.

[3]ابن الاثير: المثل السائر، تح: محمد محي الدين عبد الحميد، (د، ط)، مطبعة مصطفى الثاني الحلي وأولاده، مصر، 1949، ج2، ص 157.

[4]المرجع نفسه، ص 158.

[5] طه حسين: الأيام، (د، ط)، دار تلانتيقيت، بجاية، 2015، ص، ص 7، 8.

[6]المرجع نفسه، ص14.

[7]طه حسين: الأيام، ص19.

[8]عبد السلام المسدي: النقد والحداثة، ط2، دار أمية، دار العهد الجديد، 1989، ص 121.

[9] المرجع نفسه، ص 123.

[10] ينظر عطية عامر: دراسات في الادب العربي الحديث، ط1، دار المغرب العربي، تونس، 1970، ص151.

[11]المرجع نفسه، ص 151.

[12]المرجع نفسه، ص 152.

[13]طه حسين: الأيام، ص 269.

[14]طه حسين: الأيام، ص 269.

[15] علي الجارم ومصطفى أمين: البلاغة الواضحة البيان المعاني البديع، (د، ط)، دار المعارف، (دم)، (دس)، ص 250

[16]المرجع نفسه، ص251.

[17] السيوطي: شرح عقود الجمان في المعاني والبيان، تح: إبراهيم محمد الحميداني وأمين لقمان الحبار، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 2011، ص 188.

[18]ينظر، المرجع نفسه، ص 188.

[19] طه حسين: الأيام، ص 106.

[20]المرجع نفسه، ص351.

[21]المرجع نفسه، ص 394.

[22]عامر عطية: دراسات في الأدب العربي الحديث، ص 154.

[23] ينظر، عبد السلام المسدي: النقد والحداثة، ص 121.

[24] البدراوي زهران: أسلوب طه حسين في ضوء الدرس اللغوي الحديث، (د، ط)، دار المعارف، القاهرة، (د، ت)، ص 81.

[25]ينظر، أيمن عبد الرزاق الشوا: الفعل المبني للمجهول في اللغة العربية، ص 27.

[26] ينظر، يحي إبراهيم عبد الدايم: الترجمة الذاتية في الأدب العربي، ص،ص 422، 423.

[27]ينظر، المرجع نفسه، ص 424.

[28] طه حسين: الأيام، ص 61.

[29]المرجع نفسه، ص 61.

[30] المرجع نفسه، ص 125.

[31]المرجع نفسه، ص 152.

[32]إحسان عباس: فن السيرة، ص،ص 133، 134.

[33] عبد العزيز شرف: أصداء السيرة الذاتية، ص 70.

[34]عبد المتعالي الصعيدي: البلاغة العالية علم المعاني، تق ومر وإع: عبد القادر حساين،ط2، مطبعة الآداب، مصر، 1991،ص 96.

[35] طه حسين: الأيام، ص 381.

[36]المرجع نفسه، ص 441.

قائمة المصادروالمراجع:

1. البدراوي زهران: أسلوب طه حسين في ضوء الدرس اللغوي الحديث، (د، ط)، دار المعارف، القاهرة، (د، ت).
2. الجرجاني: معجم التعريفات، تح ودر: محمد الصديق المنشاوي، (د، ط)، دار الفضيلة، القاهرة، مصر، (د، ت).
3. السيوطي: شرح عقود الجمان في المعاني والبيان، تح: إبراهيم محمد الحميداني وأمين لقمان الحبار، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 2011.
4. ابن جني: الخصائص، تح: محمد علي النجار، (د، ط)، دار الكتب المصرية، ج3، (د، ت).
5. ابن الاثير: المثل السائر، تح: محمد محي الدين عبد الحميد، (د، ط)، مطبعة مصطفى الثاني الحلبي وأولاده، مصر، 1949، ج2.
6. طه حسين: الأيام، (د، ط)، دار تلانتيقيت، بجاية، 2015.
7. عبد السلام المسدي: النقد والحداثة، ط2، دار أمية، دار العهد الجديد، 1989.
8. عطية عامر: دراسات في الادب العربي الحديث، ط1، دار المغرب العربي، تونس، 1970.
9. علي الجارم ومصطفى أمين: البلاغة الواضحة البيان المعاني البديع، (د، ط)، دار المعارف، (دم)، (دس).
10. عبد المتعالي الصعيدي: البلاغة العالية علم المعاني، تق ومر وإع: عبد القادر حساين،ط2، مطبعة الآداب، مصر، 1991.